ب-المحور الثاني: الحفرية.

-تمهيد:

لقد قال علم آثار كبير: "**إنّ الامتناع كليا عن القيام بحفائر أثرية أفضل من الشروع فيها إذا لم تكن التجربة مع الخبرة متوفرة لأنّ هذا يفقدنا أشياء لا يمكن تعويضها**"[140].

يظن البعض أنّ هدف علم الآثار هو الكشف عن أشياء جميلة وفنية من الماضي فحسب مثل التماثيل والفسيفساء والمعابد، حقاً لقد أضافت المكتشفات الأثرية الكثير إلى تراثنا الفني ولكن هذه كلها عبارة عن نتائج ثانوية في علم الآثار، وفي هذا الصدد يقول ليونارد وولى: "إنّ عالم الآثار ببحثه عن كل ما هو إنساني يتمتع باكتشاف أشياء نادرة وجميلة، ولكن زيادة على ذلك فهو يريد معرفة كل شيء عنها. وعلى كل فهو يفضل تحصيل المعلومات عن المقتنيات أكثر من المقتنيات في حد ذاتها، إنّ الحفر بالنسبة له يعني الملاحظة والتسجيل والتفسير"[141].

08-المحاضرة الثامنة: الحفرية مفهومها وأنواعها.

أ-مفهوم الحفرية:

-لغة:

حفر: حَفَرَ الشيء يَحْفِرُه حَفْراً واحْتَفَرَهُ: نَقَّاهُ كما تُحْفَرُ الأرض بالحديدة، واسم المُحْتَفَرِ الحُفْرَةُ. والجمع من كل ذلك أَحْفارٌ، وأحافِيرُ جمع الجمع[142].

حفر: حَفَرْتُ الأرض واحْتَفَرْتُها. **والحُفْرَةُ:** واحدة الحُفَرِ. واسْتَحْفَرَ النهرُ: حان له أن يُحفَر. **والحَفَرُ**، بالتحريك: التراب يُستخرج من الحُفْرَة، وهو مثل الهَدَم، ويقال: هو المكان الذي حُفِرَ[143].

-اصطلاحا:

يطلق مصطلح الحفرية على أعمال الحفر التي يقوم بها علماء الآثار في الحقل الأثري والتي تهدف لإستخراج التحف واللقى والبقايا الأثرية المدفونة تحت الأرض، وتتم هذه العملية بطريقة منتظمة

---

[140]- حسن علي، المرجع السابق، ص52.

[141]- روبرت سلفر برج، الآثار الغارقة، ترجمة: الشحات محمد، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1965، ص06.

[142]- ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد)، المصدر السابق، مج04، ص204.

[143]- الجوهري (أبي نصر إسماعيل)، الصِّحَاحُ تاج اللغة وصحاح العربية، راجعه: تامر محمد محمد وآخرون، دار الحديث، القاهرة، 2009، ص264.

وممنهجة تختلف عن أي أعمال حفر أخرى، وهي الأسلوب والمنهج العلمي للبحث عن الآثار، بهدف استخراج واستخلاص الآثار من باطن الأرض، وتسجيل أوصافها وأشكالها والمحافظة عليها وترميمها لاستنباط التاريخ منها، وإلقاء أضواء جديدة على الحضارة الإنسانية الماضية وتطورها، باعتبارها شاهدا ماديا لها[144].

وانطلاقاً من هذا التعريف يتضح الفرق الشاسع بين أعمال الحفر التي يقوم بها الحفار الذي يبحث عن الكنوز في باطن الأرض، وبين العالم الأثري الذي يعتمد على أسلوب علمي في حفره، فهو فضل عن استمتاعه بالعثور على الأشياء النادرة الجميلة، فإنه يريد أن يعرف كل شيء عما يعثر عليه، ثم إنه في جميع الحالات يفضل الحصول على المعرفة بدرجة أولى أهم من حصوله على الأشياء الثمينة التي يعثر عليها[145].

إنّ الحفر هو إتلاف مجموعة من المعطيات الأثرية التي لا يبقى منها سوى قسم ترجع أهميته بشكل او بآخر لتقدير عالم الآثار المكتشف، ولقد قيل أيضاً إنّ الحفر هو قراءة كتاب يضمحل أولا بأول، إنها محاولة فيزيائية أو كيميائية يستحيل إعادتها[146].

والحق إنّ المعول يخرب والقيام بأعمال الحفر يعني تخريب عمل العصور المتعاقبة قطعة قطعة من أجل الوصول إلى الأرض البكر، وأمام هذه الوضعية فإن الآثار المعمارية وحدها هي التي تفلت من هذه البلبلة وتبقى ثابتة، إلا إذا ضحي بأبنية لاحقة لتخليص مبنى يعتبر أكثر إثارة للإهتمام[147].

إنّ تنفيذ أعمال الحفر يمر بعدّة خطوات هي مرتبة على النحو التالي:

-يجب القيام بعمل مسح أولي للموقع المراد الحفر فيه وتنفيذ بعض المجسات الاختبارية إن لم يتم ذلك من قبل.

-تقسيم الموقع إلى شبكة من المربعات وتوقيع النقطة الثابتة والخط الثابت.

-تحديد مكان رمي الرديم.

-تنفيذ عملية الحفر (طرق الحفر المختلفة).

-أخذ القياسات أثناء عملية الحفر وتوثيق وتسجيل اللقى الأثرية.

---

[144]- دحدوح عبد القادر، المرجع السابق، ص31.

[145]- دحدوح عبد القادر، المرجع السابق، ص31.

[146]- حسن علي، المرجع السابق، ص52.

[147]- جورج ضو، تاريخ علم الآثار، ترجمة: بهيج شعبان، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط03، 1982، ص72.

-قراءة الطبقات[148]. إنّ الهدف من الحفائر الأثرية العلمية ليس الحصول على الدفائن والكنوز فقط، وإنما البحث عن حضارة الإنسان ومخلفاته، ثم من بعد ذلك دراسة تلك المخلفات من أجل إلقاء الضوء على هذه الحضارة ومراحل تطورها والعمل على استكمال النقص الوارد في حلقاتها من خلال ما يمكن التوصل إليه من نتائج ودراسات[149].

ب- أنواع الحفرية:

إنّ الحفريات الأثرية هي بمثابة العمود الفقري للدراسات الأثرية ولا تتمثل القيمة العلمية لأي قطعة أثرية يتم العثور عليها في الموقع بقدر ما تكون في قيمتها التاريخية، وما يمكننا استخلاصه منها من معلومات، إنّ الباحث الأثري هدفه الأول والأسمى هو الحصول على المعرفة العلمية التاريخية أكثر من القيمة المادية للمكتشفات الأثرية، لذا وجب عليه أنّ يتبع أثناء قيامه بالحفريات الأثرية منهجاً وطرقاً علمية سليمة وإلا فإنّ حفريته لا تختلف عن الحفريات التي كان يقوم بها الأوائل في القرون السابقة.

إنّ الغرض من الحفريات الأثرية هو إنقاذ المعلومات التي يمكن جمعها من الموقع الأثري من خلال المخلفات واللقى الأثرية والمستوطنات القديمة التي تشير وتعبر عن حضارة الإنسان الذي عاش في هذا الموقع قديماً، لذلك فإن نوع الحفريات يتحدد حسب الظروف وتبعاً لطبيعة الموقع الذي ستجرى فيه الحفريات، وعليه فهناك عدّة أنواع للحفريات حسب مدى المعلومات التي يراد الحصول عليها من الموقع[150]، وهي:

أ-الحفرية الاختيارية:

إنّ الهدف من القيام بهذا النوع من الحفريات هو الحصول على الحقائق الأساسية والرئيسية عن حضارة قوم عاشوا في المنطقة، وعن العصر الذي عاشت فيه هذه الجماعة التي صنعت هذه الحضارة دون الحاجة للدخول والبحث عن أدق التفاصيل التي تتعلق بمظاهر هذه الحضارة. إنّ مثل هذه الحفريات لا تستغرق وقتاً طويل وتحتاج إلى جهود قليلة لأنّ الهدف منها هو الحصول على المعلومات الرئيسية فقط من هذا الموقع[151].

---

[148]- قادوس عزت زكي حامد، المرجع السابق، ص57.

[149]- رزق محمد عاصم، المرجع السابق، ص71.

[150]- الفخراني فوزي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص146.

[151]- نفسه، ص146.

إذا فإنّ الغرض من إجراء هذه الحفرية هو الحصول على معلومات محددة مسبقاً، أو البحث في جزء من الموقع فقط من أجل الحصول معلومات حقبة زمنية معينة دون غيرها من الحقب الزمنية الأخرى.

ب-الحفرية الكلية الشاملة:

إذا كان الهدف من الحفرية الاختيارية هو البحث عن حقبة أو فترة زمنية معينية دون غيرها أو إجراء الحفر في جزء من الموقع فقط، فإنّ الحفرية الشاملة تختلف عليها كلية لأنّ الهدف منها هو جمع كل المعلومات الكاملة عن حضارة قوم عاشوا على هذا الموقع في كل فترات حياتهم وتاريخهم بكل تفاصيلها وهنا تسير الحفرية في الموقع طبقة بطبقة حتى الوصول إلى الأرض البكر، وعلى الحفرية أنّ تجيب على كل التساؤلات التي يمكن أن نستقيها من الموقع[152].

إنّ هذا النوع من الحفريات يستغرق وقتاً أطول ويتطلب جهداً أكبر لأنها تقوم على منهج الحفر المفتوح والشامل للموقع الأثري كله دون ترك أي جزء منه.

ت-الحفرية الإنقاذية:

كثيراً ما تقوم مؤسسات عامة أوخاصة بأشغال حفر خاصة بالبناء أو شق الطرق أو غيرها، وقد تصادف أثناء أشغالها تلك أثاراً مطمورة في التراب، ولما يحدث هذا يصبح من الواجب على هذه المؤسسة أن توقف أشغالها وتبلغ السلطات المعنية بحماية الآثار، بإمكانها أن تقوم بتبليغ مصالح البلدية الأقرب إليها، وهذه الأخيرة تقوم بالاتصال بالجهات المعنية[153].

وأمام هذه الوضعية الطارئة وجب برمجة حفرية إنقاذية للموقع هدفها إنقاذ ما يحتويه من آثار من الهدم والتخريب بواسطة إقامة مباني جديدة ستقام فيه، أو لاستخدام أحجاره في أعمال البناء وغير ذلك[154].

إنّ التنظيم المعمول به حاليا في الجزائر هو أن أي مشروع حفر ينبغي أن تجتمع على مستوى البلدية المعنية لجنة خاصة من أجل دراسة المشروع، ويحضر الاجتماع ممثل عن مديرية الثقافة، ويقوم هذا الممثل بمعاينة الموقع فإن كان أثريا يطلب عدم المساس به وعدم الترخيص للمشروع.

---

[152]- الفخراني فوزي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص ص146،147.

[153]- دحدوح عبد القادر، المرجع السابق، ص ص31،32.

[154]- الفخراني فوزي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص147.

وقد لا تبدو الآثار ظاهرة للعيان فوق سطح الأرض وتشرع المؤسسة في أشغالها، فتعثر صدفة على بقايا أثرية فعندئذ تقوم بتبليغ المؤسسات المعنية، فتقوم هذه الأخيرة بإرسال بعثة أثرية مختصة للموقع لإنقاذ الآثار المتبقية وحمايتها من التلف والانهيار، ويكون تدخل البعثة في هذه الحالة بدون تكوين ملف أثري حول الموقع وبدون اتباع الخطوات والإجراءات اللازمة للحفرية العلمية المبرمجة، وتحاول البعثة في حفريتها الإنقاذية هذه أن تحدد حيز الموقع وتسييجه حماية له[155].

ث-الحفرية في البحار وتحت المياه:

إنّ التنقيب تحت الماء هو عبارة عن اختصاص جديد في علم الآثار حيث لا يزال في مراحله الأولى، فهو عمل لا يخلو من المخاطر في الوقت الحاضر ولكنه ضروري للبحث عن السفن التي غرقت في الماضي واستقرت في قاع البحار والأنهار. والحمولة التي كانت تحملها تلك السفن هي من صنع الإنسان في القديم من آلات وأدوات حجرية ومعدنية وأواني فخارية أو تماثيل رخامية أو معدنية أو عتاد حربي أو حلي ذهبية ولقد أصبحت اليوم آثار بعد مرور زمن طويل على بقائها تحت الماء[156]، لذلك وجب استخراجها من أجل دراستها والاستفادة من ما تقدمه لنا من معلومات تاريخية قيمة.

لقد عرفت الحفريات التحت مائية في أوربا منذ فترة طويلة، لكنها تشهد تأخراً كبيراً في البلدان العربية والإفريقية، بالرغم من أن الكثير من السفن تحطمت على شواطئ وعرض البحر في المياه الإقليمية لهذه البلدان، كما أنّ موانئ العصور القديمة لا تزال غارقة في المياه، وقد حدثت بين الحين والآخر اكتشافات عرضية لها، كما حدث في مدينة المهدية بتونس عندما عثر صدفة على مجموعة من التماثيل ليتم استخراجها في سنتي 1907 و1913[157].

ولنجاح جميع طرق الحفر السابقة الذكر يجب أن تدار بكثير من الحذر بحيث يصبح بالإمكان إعادة المسير والتفصيلات في كل لحظة فيما بعد، وعلى المنقب المدقق أن يثبت بقد الإمكان جميع مراحل بحثه بواسطة الكتابة والرسم والتصوير الفوتوغرافي، ويجب أن تكون الدفاتر والسجلات ولوائح الحفريات كاملة بقدر الإمكان فتسجل كل التفاصيل التي تبدوا ظاهرياً غير مفيدة لأنه يمكن بفضلها صياغة أو تفسير أي جزئية أو ظاهرة فيما بعد[158].

---

[155]– دحدوح عبد القادر، المرجع السابق، ص 32.

[156]– الدباغ تقي، المرجع السابق، ص120.

[157]– دحدوح عبد القادر، المرجع السابق، ص 32.

[158]– جورج ضو، المرجع السابق، ص73.

ولما كانت الحفريات الأثرية ليست تجارب الكيمياء والفيزياء (الطبيعة) يمكن إعادتها في أي لحظة وجب تسجيلها بدقة، لأنّ الحفرية ينتهي شكلها الذي كانت عليه بمجرد حفرها فلا يبقى بعد ذلك إلا السجلات التي دونت عليها المعلومات أثناء عمليات الحفر والتنقيب[159].

إنّ الذي يقوم بأعمال الحفر عندما لا يعتمد على أسلوب علمي ممنهج ودقيق فهو مثل السارق تماماً يهدفان إلى الحصول على أشياء ذات قيمة فنية أو تجارية ثم يقف اهتمامها عند ذلك الحد[160].

[159]– الفخراني فوزي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص148.

[160]– حسن علي، المرجع السابق، ص43.